الدكتور محمد اقبال

اكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر

ورسالة شعره

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ١ —

ان للشعر في حياة الامة رسائل ووظائف تتنوع على حسب ادوارها المختلفة . لذلك قالوا ان الشاعر دائماً يمثل لاحوال زمنه وصورة لحوادث عصره. وان الزمن هو الذي يخلق الشاعر على حسب احتياجه وضروراته . ففي دور الفروسية حين لا تعرف افراد الامة دعة ولا تستوطىء راحة ، بل كل واحد منهم يريد ان يخوض هائل الغمرات ويجوب وطيس الوقعات ، لا يألو اقداماً ، ولا يتكص احجاماً ، لا ينشر الشاعر بشعره الا آيات الحديث تستعبد الاسماع وتلذ الانفس فتليهم ، وتحليهم عن قصدهم ، وتصدفهم عن مبتغاهم ، بل ان شعره في هذا الدور شرار من النار تلهب نار الشجاعة في قلوبهم ، وتنفخ روح الحماسة في نفوسهم . تذمرهم للحرب ، وتهيجهم للطعان والضرب . وتشعلهم للقراع وتؤججهم للصراع . وفي دور المروج حين تنقلب الامة وتحكم تتوجه الى تدبير شئون البلاد وتنظيم ادارة الحكومة . تكف افرادها عن القتال وتصد عن النضال . فتضمحل قوى الحياة ويتبر الطلب بالقناعة ويحل السكون محل الحركة والاستلذاذ محل الجهاد لان امور الامة تنتظم فيه فتصلح حالها ، وتضاعف يسارها ، وتمرع جنابها ، فيقع اعباؤها في الطَّفش والرَّفش[1] فينتج الشاعر بطبيعة الحال في هذا الدور على الاكثر ، القصائد في المديح والغزل والنسيب . وفيه يبتدىء الشعر ان يضع رتبة وينحط حقيقة ويسقط منزلة . وفي دور الانحطاط حين تخلد الامة الى الكسل وتطمئن الى الخمول تصبح ميتة الحس لا تحفزها الحاجة ولا تستحثها الفاقة ، تضيل دعائم عزها ، وتتهاوى كواكب سعدها ، فتتقوض سرادق مجدها يستبدها الاجنبي ويستذلها الغير ، يفتح على افرادها ابواب الظلم والخذلان ، ويطلق

(١) قال ابن خلويه : وقع فلان في الطفش والرفش اي في الاكل واللهو

عليهم عقال الجور والهوان . فيرضون بها ، ويركنون اليها ، ويعدون هذا الجور عدلاً ، والهوان كرامة ، والضعف قوة ، والانحطاط عروجاً . في هذه الساعة تتحرك القدرة الالهية لايجاد التوازن في النظام الطبيعي فتخرج الحياة من الموت ، وتبعث اليهم رسل الشعر ، معجزي البيان ، محكمي المنطق ، سلسي الأسلة ، يحيون بشعرهم مواتاً ، ويهدون برأيهم ضالاً ، ويعدلون ببصيرتهم زيغاً ، ويصلحون بنظرهم فاسداً فتدب الحياة في عواطفهم وتستيقظ غيرتهم وتجتمع كلمتهم وتبعث روح الحماسة في قلوبهم فيقومون قومة واحدة لاعادة مجدهم واستعادة كرامتهم

ومن هؤلاء الرسل شاعرنا الدكتور اقبال . فرسالة شعره في الحقيقة نفخة صور تبعث الحياة في العالم الاسلامي خاصة والشرق عامة من جديد وتسعى لاخراجهم من الظلمة الى النور ، ومن الضعة الى الرفعة ومن الهوان الى الكرامة ومن الانتناء الى العزم ومن الضعف الى القوة . وإذاً فدعوته تختلف عن دعوة الشعراء الآخرين لان دعوتهم وان باشرت بعض نواحي الحياة ، قد لا تباشر الحياة نفسها ومن أساسها . فشعره في الحقيقة دواء ناجع لمرضى العزيمة ، وحياة جديدة لموتى اليأس ، ودليل ناطق لحائري الضعف ، وبشارة عظمى لكلال الهمة وقد اشار الدكتور الى رسالته هذه في ديوانه « بانك درا » فقال :

« ان رسالة غيري شيء ، ورسالتي شيء آخر
ان أسلوب الكلام لمن طاب العشق (حقيقة) شيء آخر
انكم قد سمعتم نياحة الطير المحبوس
ولكن اسمعوا ان نياحة الطير الذي على القمة شيء آخر »

وما تلك الرسالة الا سر الحياة أو طريق الكمال الذي بذل الدكتور في معرفته حياته فلم يدركه الا بعد ان عقله التعب ، وشكله النصب ، وسه النوب ، وناله الرزوح ، ولحقه الطلوح . فلما عرفه لم يجد من يفهمه ولا من يسمعه كما قال في بيت :

« انني وان كنت قادراً على التعبير فانه ليس هناك من يفهمه
واحسرتاه ! على من في صدره سر وليس له رفيق ! »

وقال في بيت آخر :

« انني جئت بحديث جديد ولا يصغي اليه أحد
ان الثور كاد ان يثيب ولا بد نحوه احد بصره »

يضيق بنا المجال عن ان نقدم الى القراء جميع المعالم في رسالة شعر اقبال لان صاحب تلك الرسالة قد بسطها في سبعة دواوين ظهرت الى الآن اي في ألفي صفحة تقريباً . وما نقدر عليه هنا هو ان نقدم اليهم بعضها بالايجاز فنقول :

أولاً : ان أهم ما يحتوي عليه رسالة شعره هو الدعوة الى الجد والجهد . فقد أبان في دواوينه مرة بعد مرة بطرق مختلفة ، وأفكار دقيقة ، وأمثلة كثيرة ، وأسلوب مؤثر ، ان المصائب والآلام في حياة الانسان ان هي الاَّ أشياء اعتبارية ، وان تحملها من اكبر البواعث على بلوغ الانسان الكمال المنشود الذي به ينال الدوام والخلود . وان عيشة النعم التي تشل قوى الانسان العملية في الحقيقة تدمير لحياته وموت لهُ . وإذاً فان كل من أراد بلوغ الكمال ونيل الخلود يجب ان يجتهد ويجد ويخوض غمار الآلام والمصائب ويجابه العراقيل في سبيل ذلك بالبسالة والشجاعة . وقد بسط الدكتور هذه الدعوة في جميع الدواوين نقتطف منها بعض الابيات هنا قال :

« ان الحياة هي ان تخلق اللؤلؤ في صدفك
وان تنفذ في اللهيب ولا تذوب . »

وقال في بيتين آخرين : —

« يامن جلست على الساحل جلسة القناعة والهدوء
قم ! لانهُ لا يزال لك شغل مع الدُّرْدُور والقراح
أن اعراضك عن القَدُوم ليس من شأن العاقل
لان كثيراً من الجوهرات لا تنال في قلب الحجر . »

وقال ايضاً : « لا تزين محفلك على الساحل لان هناك صوت الحياة منخفض
غص في البحر ! وجاهد امواجه
لان خلود الحياة في الجهاد »

وقال ايضاً : « سألت صاحب النظر ما هي الحياة ؟
فقال : هي الخمر التي امرُّها احسنها »

وقال ايضاً : « قال الساحل الساكن : أنا عشت طويلاً
ولكن واحسرتاه ! انا لم أعرف من انا ؟
فلم يتمالك الموج وجرى بالسرعة اليه وقال :
أن وجودي من الجريان فان لم أجر فلا وجود لي

وقال ايضاً : « الى متى تكون تحت اجنحة الآخرين
تعلم الطيران الحر في هواء الحديقة
اخرج من غزلة البرغوم مثل الشذى
وامتزج مع نسيم السحر وتعلم المهبوب »

ثانياً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة الى استمرار الجهاد فالتقلب بين اعطاف السكون، والتفيؤ في ظلال الراحة ، والاخلاد الى الدعة ، عنده مرادف للموت . لذلك قد وضح في دواوينه بطرق مختلفة مؤثرة ان لا ينبغي للانسان ان يكتفي بحالة واحدة ويرضى بما هو فيه ، ويقنع بالكفاف ، ويجزىء باليسور ما دامت ابواب الرقي عليه مفتوحة ، وطرق التوقل في أعلى منها ممكنة . لان الحياة عنده هي الحركة الدائمة والجهاد المستمر . وقد عبر عن ذلك بأبيات كثيرة نختار منها ما يلي قال :

«ان الحياة تنقش في كل لحظة نقشاً جديداً
ولا قرار لها في صورة واحدة
لو كان يومك هذا نفس صورة البارحة
فليس في ترابك شرار الحياة »

وقال ايضاً : « اتسألني من اين انا ومن انا ؟
اني اموج حول نفسي فأعيش
اني مضطرب في هذا البحر مثل الموج
فان لم اضطرب حول نفسي فلا وجود لي »

وقال ايضاً : « لو تبحث عن رمز الحياة لا تجده الا في الاضطراب
ان في الاستراحة في البحر عاراً على ماء النهر »

وقال ايضاً : « ان حياة القطرة تعلم اسرار الحياة
فانها احياناً اصبحت لؤلؤاً ، وتارة ندّى ، وطوراً دمعة »

يشترط الدكتور اقبال اصطحاب هذا الجد المستمر بالعلم . لان العلم مفتاح المحاسن ومصباح المحامد اذ لا شرف الا وهو السبيل اليه ، ولا خير الا وهو الدليل عليه . فقد بث الدكتور منزلته وفوائده في الدواوين بأبيات كثيرة وحث على التحلي به نكتفي منها بما يلي قال :

« ان الحياة جهد وليس الادعاء
ولا سبيل لذلك الا بعلم الانفس والآفاق
ان العلم يعطي الجناح للحرف والصوت وبهاء اللؤلؤ لما ليس بلؤلؤ »

وقال ايضاً : « ان دواء امراض الامة في هذا العصر علم
لانه كالفصد للدم الفاسد في جسمها
ان الله قد قال في الحكمة انها خير كثير
فخذ هذا الخير اينما تجده »

ولكن ينكر اقبال العلم الذي يوهن العزيمة فيبدد نشاط الاضطلاع باعباء المهمات ، ويفتر الهمة فيتلف شهامة الركوب على ظهور العوائق ، ويضعف الحماسة فيفني صولة الثبات في ارتطام المهالك ، فقد قال فيه ما يلي ترجمته :

« أنا لا آخذ بقطعة من الحشيش ذلك العلم والفراسة
اللذين يجعلان الرجل الغازي من سيفه ودرعه غريباً »

وفي هذا البيت ايضاً اشارة الى ان الثقافة او التربية التي لا تلائم بيئة الانسان وطبعه وعاداته وتقاليده بل تقطع صلته بها ليست ذات قيمة تستحق الاعتناء.

وينكر اقبال ايضاً العلم المجرد عن الروحانية ، ويرى انهُ خطر داهم على الانسانية . فالثقافة الغربية التي تتسلط يوماً فيوماً على نفس الانسان وعقله عنده غير مفيدة للعالم لانها تشل الروحانية وتقتلها . وذلك لان اساسها العلم المجرد . فعيون عقلاء الغرب يقظة ولكن قلوبهم ميتة وأرواحهم راقدة . وهم يشاهدون في تقدم العلوم والفنون الحاضر انحطاط الروحانية وزوالها ولا يقدرون على انقاذ الموقف . وتقدم العلوم الطبيعية الذي تثار في اطرائه الآن ضجة وان كان أفاد الانسان من بعض الوجوه فانّ ويلاته عليه اشد من ذلك لانهُ الوسيلة الوحيدة لصنع الآلات المهلكة لهُ وللاتيان بالدمار عليه . ألم تر كيف ان اصوات الحربة المرتفعة في الغرب المتقدم في العلوم والفنون ان هي الاّ اصوات السلاسل لاسترقاق الغير من ابناء البشر . لذلك يدعو اقبال اهل الشرق عامة والمسلمين خاصة الى انقاذ انفسهم من الوقوع في مثل هذه الورطة اي اهمال الروحانية . وهو يرى ان اساس العلم العقل واساس الروحانية عشق . فمركز عقل الانسان دماغه ومركز عشقه قلبه . والغرب قد اهمل القلب . وقد وضح ذلك في قصيدة طويلة كلها ردٌّ على الشاعر الفيلسوف الالماني جويته ونشرها في ديوانه «رسالة الشرق» . والقصيدة آية في البراعة والاتقان تملك القلوب وتسترق الافهام وتستعبد الاسماع . كما انهُ ابان ذلك في دواوينه الاخرى ونحن نترجم بعض الابيات المختارة منها هنا قال :

« لو تقرأ العلم بغير حرقة القلب فهو شر
ونوره ظلمة البر والبحر
ان العالم من غازه أعمى وأزرق
وملكه يسقط اوراق الفناء والبقاء
فالبحر والصحراء والجبل والحديقة والمرج
متأثرة بقنابل طياراته

« ان النار في صدر الافرنج منهُ
ولذة الهجوم عندهم منهُ
هو يعطي الايام السير الموج
ويسلب رأس مال الاقوام
ان قوتهُ صاحبة ابليس
والثور يصيح النار بصحبة النار
ان قتل ابليس أمر صعب
لانهُ متوار في اعماق القلب
فالاحسن أن نجعله سلماً
ونقتلهُ بسيف القرآن .
الامان ! من الجلال المجرد عن الجمال
الامان ! من الفراق المجرد عن الوصال
ان العلم بغير العشق من الطاغوت
ان العلم مع العشق من اللاهوت

وقال ايضاً : « ان اساس العلم على الخوف والرجاء
وأما العشاق فلا رجاء لهم ولا خوف
ان العلم يخاف جلال الكائنات
والعشق يغوص في جمال الكائنات
نظر العلم الى الماضي والحاضر
ولكن العشق يقول : انظر الى ما يأتي
إن العلم قد عاهد قوانين الجبر
فليس لديه علاج الا الجبر والصبر
ولكن العشق حر وغيور وغير صبور
هو قد جاء في عرض الوجود جسوراً
ان عشقنا لا يعرف الشكاوى
وإن كان سكران بالبكاء

وقال في القصيدة التي كتبها رداً على جوبته

« ايتها الريح ! بلغي عني فيلسوف الافرنج
ان العقل كلما يكون مدققاً يكون اكثر أسراً
انهُ يحرق هذه الكبد ويأسر الاخرى
ولكن العشق اكثر محافظة على الكبد من العقل الفتَّان
إن العين لا ترى إلاَّ لون الورد وشقائق النعمان
والاَّ الذي تحت قناع اللون اكثر ظهوراً
ليس العجب من أن عندك اعجاز المسيح
ولكن العجب ان مريضك اكثر سقماً (بديك)
انك قد جمعت الحكمة ونبذت القلب من الكف
واحسرتاه ! على النقد الثمين الذي نبذته

وقال فيها ايضاً مشيراً الى ما انتجت الحضارة الغربية المؤسسة على العلم المجرد :

« ان العشق اصبح طلسماً فتجذبت الورى
والانسان صار من فتنته في الشعر مثل السمك
انهُ قد اختار الحرب على السلم وحشد الجيش
ولم ينزل سيفه الاَّ على رؤوس الاصدقاء وصدورهم
والعصوبة التي أسسها سماها « تسيير العالم »
وظلمُ سيادته قد كسر ظهر العامل
انهُ يرقص على صوت الدفِّ والناي بنير الحياء
وفي يده كاس من دم اقاربه المساكين »

(يتبع)